

د. محمد عبد السلام كفافي

١٩٢١/٥/٧ - ١٩٧٢/٦/٢٨

والأدب الفارسي

د. محمد عبد المنعم خفاجي *

- ١ -

رائد كبير من عصر كبير في تاريخ مصر المعاصر عصر الفكر والعلم والثقافة والأدب ، عصر النهضة الحقيقية في حياتنا الحضارية في القرن العشرين.

وكان الدكتور كفافي أحد الأعلام والرواد ، في عصر شوقي وحافظ وطه حسين والعقاد وشكري والمازني وأبو شادي ، وسواهم من الرواد .

أدى رسالته ، ثم رحل عنا ، وهو في الحادية والخمسين من عمره ، عمر المتني وأبي تمام وابن المعتز وعبد الحميد الكاتب وابن المقفع وأضرابهم من المجددين والمبدعين ، الذين لقوا بهم وهم في الحادية والخمسين . كان والده عبد السلام كفافي (١٨٩٠ - ١٩٣٧) أستاذاً وأديباً وله مؤلفات عديدة منها كتابه عمرو بن العاص ، وكتابه إعراب اللغة العربية ، وفي مكتبته الزاخرة نما عقل طفله الصغير ... كما كان جده لوالدته الشيخ عبد السلام الدواخلي من العلماء المشهورين .

ولد الابن محمد عبد السلام كفافي في ٧ مايو ١٩٢١ على شواطئ بحيرة

* استاذ الأدب العربي بجامعة الأزهر

المترلة التي كانت تتبع مديرية أو محافظة الدقهلية آنذاك قبل أن تلحق بدمياط ، فهو ابن الدقهلية الخالد .

وما لبث أن أتم تعليمه الابتدائي في موطنه ، وفي دمياط القريبة منه . ثم بمس وجهه شطر المنصورة فدخل مدرستها الثانوية الأميرية ، وزامل طلاباً ما لبثوا أن صاروا أعلاماً مشهورين ، من مثل : الشاعر الهمشري ، ومختار الوكيل ، ومحمد عبد الغنى حسين ، وصالح جودت ، وغيرهم ... ونال البكالوريا عام ١٩٣٩ ، وهو في الثامنة عشرة من عمره وألتحق بجامعة القاهرة طالباً في معهد اللغات الشرقية بكلية الآداب حيث نال منه الليسانس في الآداب عام ١٩٤٣ . وحصل بعد ذلك على دبلوم الدراسات العليا في اللغات الشرقية عام ١٩٤٥ ثم على الدبلوم العالي للمكتبات والوثائق عام ١٩٤٦ وفي العام نفسه ابتعثته الجامعة إلى جامعة لندن ليقضى فيها أربع سنوات حصل في نهايتها على الدكتوراه في الفلسفة في تحقيق وشرح ودراسة لكتاب (بيان الأديان) لأبي المعالي محمد .

وعاد إلى وطنه ليدخل في سلك هيئة التدريس في كلية الآداب بجامعة القاهرة أو جامعة فؤاد الأول كما كانت تسمى من قبل ، وذلك عام ١٩٥٠ . وسافر إلى أمريكا محاضراً في إحدى جامعاتها بين عامي ١٩٥٣ - ١٩٥٥ ثم ندبته الجامعة إلى جامعة بيروت العربية . وما لبث أن أسندت إليه عمادة الكلية في عام ١٩٦٤ ف قضى فيها عامين ... ومن بيروت صدرت له كتب عديدة ، من بينها : دراسة في علوم القرآن ، ومختارات من كتاب النصيحة لفريد الدين العطار الشاعر الفارسي الصوفي المشهور المتوفى عام ٦٢٧ هـ وهو صاحب " منطق الطير " المشهور .

وكتاب "الصيحة" منظومة شعرية ... كما صدر له كتاب شاعر الصوفية الأكبر جلال الدين الرومي ، وكتاب الرومي في حياته وشعره (٦٠٤-٦٧٢ هـ) ، وكذلك صدر له كتاب في الأدب المقارن وآخر عن الحضارة العربية .

وكان أستاذه عبد الوهاب عزام حبيب في كتاب المثنوى لجلال الدين الرومي ، فعكف على ترجمته من الفارسية وأتمه قبل أن يرحل عن عالمنا إلى عالم الخلود بقليل ، وقد طبع منه الجزء الأول والثاني في بيروت عام ٦٦ و ١٩٦٧ ، ثم طبع طبعة جديدة كاملة هذا العام في أربعة أجزاء صدرت عن دار الشروق .

وكم سهر د . كفافى الليالي من أجل إنجاز هذا العمل الكبير ترجمة وشرحاً ودراسة ، مما أرهق صحته ففاضت روحه إلى بارئها في الثامن والعشرين من يونيو ١٩٧٢ رحمه الله.

- ٢ -

وديان المثنوى لجلال الدين الرومي يحمل فكر الدكتور كفافى مترجمه ، وفلسفته الروحية وأدبه وعلمه الغزير ، وهو شاهد صدق على عبقرية هذا الجامعي الرائد في مجالات الدراسات الصوفية ، وعلى فكره الروحي الإشرافي ، مما يتوجه بتاج المجد والخلود .

إن قصة رحلة د / كفافى مع المثنوى وصاحبه جلال الدين ، بدأت منذ كان طالباً في معهد اللغات الشرقية يستمع إلى فصول ومختارات من المثنوى يلقاها أستاذه الدكتور / عبد الوهاب عزام (ت ١٧ / ١ / ١٩٥٩) في محاضراته على طلابه ، وينصت إلى إشادة أستاذه بجلال الدين وإبداعه وعبقريته وبديوانه " المثنوى " .

ولكن الرحلة العملية للدكتور كفاي مع المثنوي بدأت منذ عام ١٩٦٠ حيث أخذ يعمل فعلاً في ترجمة هذا الأثر الأدبي العالمي الخالد ، وظهر الجزء ١ و ٢ في حياته عام ١٩٦٦ و ١٩٦٧ .
وأكمل في حياته مشواره مع المثنوي شرحاً وكتابة "دراسات علمية جامعية " عنه.

والمثنوي كما يقول الدكتور/ كفاي يتناول الحياة بكل جوانبها وفي شتى أحوالها وصورها ولكنه بذوق صوفي . ولم يكن سبيله في معالجته سبيل واعظ بل سبيل الشاعر الفنان . وما أجمل ما تقول شاعرنا الكبيرة المعاصرة / نازك الملائكة:
أنا لا أحبك واعظاً بل شاعراً قلق النشيد

والمعروف أن شاعر المثنوي جلال الدين بدأ في نظم عام (٦٥٧ هـ - ١٢٥٩ م) فأتم نظم الجزء الأول منه بين عامي (٦٥٧ ، ٦٦٠ هـ) ثم أستأنف النظم بعد عامين ، أي عام ٦٦٠ هـ حتى أتمه وهو في صورته الحالية قبل وفاته عام (٦٧٢ هـ - ١٢٧٤ م) .

ويقول د / كفاي : " إن الجزء السادس والأخير من المثنوي ينتهي بقصة لم تصل إلى نهايتها ، كأنه كان يعتزم المضي في النظم ، لكنه قد نص في بداية الجزء السادس على أنه آخر أجزاء المثنوي " .

ويغالي شاعر المثنوي جلال الدين في بيان أهمية هذا الديوان فيقول في مقدمة الجزء الأول منه : " إن المثنوي هو أصل الدين في كشف أسرار الأصول واليقين ، وهو فقه الله الأكبر .

ويشيد الدكتور كفاي بالمثنوي ، ويراها ملحمة شعرية إنسانية ، وهو

كذلك بحق فقد تناول جلال الدين فيه الكثير من المعارف والعلوم ، واشتمل على بضع مئات من القصص .

وبحسب المثنوى دعوة للإخاء والحب بين بني البشر ، وتحذيره من الحروب ، وحضه على العدالة والمساواة بين الناس مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم.

وهو أثر من الآثار الأدبية الإنسانية الخالدة . وقد شرحه كمال الدين الخوارزمي (ت ٨٤٠ هـ) شرحاً واسعاً بكتابه " كنوز الحقائق ورموز الدقائق " والمثنوى بحق هو في عداد الآثار الأدبية العالمية ، وينوه به كل الباحثين المتخصصين وفلاسفة الفكر في الشرق والغرب .

كان الذي أغرى جلال الدين بنظم المثنوى هو تلميذه حسام الدين (٦٢٢ - ٦٨٣ هـ) حيث ألح عليه في ذلك طالباً منه أن ينظم عملاً شعرياً على غرار " حديقة الحقيقة " للشاعر الفارسي سنائي ومنطق الطير لفريد الدين العطار (الذي يحتوي ٤٦٠٠ بيتاً من الشعر)

ولذلك يقول جلال الدين في المثنوى

" يا حياة القلب

يا حسام الدين

هذا أنا ذا أحمل إليك الجزء السادس الذي يتم به المثنوى " .

وقد أدت ترجمة الدكتور كحافى له هدفها في توضيح أفكاره وشرح فلسفته ، وتقريب مضامينه إلى أذهان الناس وعقولهم وأذواقهم ، ومن أجل ذلك أضحت هذه الترجمة أهم إصدار أدبي عالمي في بدايات القرن الحادى والعشرين.

- ٣ -

هذا هو قليل من كثير: عن إبداع الدكتور كفاي في ترجمة المثنوى ،
وإبداع شاعر المثنوى في نظم فلسفته وأفكاره في الحياة .

فمن هو إذن شاعر المثنوى ؟

جلال الدين الرومي (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ) شاعر الصوفية الأكبر كما

يلقبه د/ كفاي.

عاش حياته ، يخلق في سماء الروح والمعرفة والإبداع ، وهو ينشد :

ما التدبير ؟ وأنا نفسي لا أعرف نفسي

فلا أنا شرقي ، ولا أنا غربي

ولا أنا من الأفلاك والسموات

ولا أنا من عناصر الأرض والطبيعة

ولا أنا من الكون ، ولا أنا من المكان

ولا أنا من أهل الدنيا ، ولا أنا من الفردوس

ولا أنا من ملك العراقين ، ولا أنا من ملك بلاد خراسان

وإنما مكان حيث لا مكان ، وبرهاني حيث لا برهان

فلا هو الجسد ، ولا هو الروح

لا شيء

أنا في الحقيقة من روح الروح الحبيب

ويقول أحد العلماء : " لا يمكن لأى إنسان من لحم ودم أن يقول مثل

الشاعر جلال الدين ، ولن يستطيع أى شاعر بعده مهما ملك من قوة التعبير أن

يلغ ما بلغه هذا الشاعر الحكيم .

والدارسون وفي مقدمتهم الأستاذ الدكتور كفاي يرون أن شاعر المثنوى أكبر شعراء الصوفية في كل زمان ومكان ، وأنه واحد من شعراء الإنسانية الأفاضل . ولد جلال الدين في بلخ وهي إحدى مدن أفغانستان الكبيرة ، وكان الميلاد في السادس من ربيع الأول من عام (٦٠٤ هـ - ١٢٠٨ م) .

وخوفاً من الغزو المغولي تنقل والد جلال الدين بابه وبجميع أفراد أسرته من مكان إلى مكان : نيسابور - بغداد - ودمشق .. وأخيراً وفي عام ٦٢٤ هـ استقر به المقام في قونية ، ومن ثم قيل لجلال الدين . البلخي والقونوي . كما قيل له الرومي لأن قونية من بلاد الأناضول ، وهي من أرض الروم ، وكانت قونية آنذاك عاصمة للحاكم السلجوقي علاء الدين .

وكان والد جلال الدين يلقب بسلطان العلماء لعلمه وفضله وتقواه . وقد توفي عام ٦٣٨ هـ في قونية .

وعاش جلال الدين في هذه المدينة ثمانية وأربعين عاماً . يعمل واعظاً ومرشداً ومعلماً وشاعراً صوفياً . سيطر على قلوب تلاميذه ومريديه بشخصيته القوية .

وكان موضع تقدير الناس كافة وإجلالهم وحبهم الكبير .

وفي عام ٦٤٢ هـ كان شاعرنا العبقري جلال الدين يجلس على حافة غدير ماء إذ مر به شيخ كبير مهيب ، فرحب به الشاعر ، وبدأ الشيخ معه الحديث قائلاً : ماذا تفعل هنا يا بني ؟ ورد عليه جلال الدين : أبحث في عالم الشعر والخيال ، وأستلهم الوحي والجمال ، وأتأمل في هذه الموجودات التي أوجدتها موجدتها .

ويختلط على الأمر ، فلا ادرى كيف السلوك إلى معارج الحقيقة الكامن خلف هذه الموجودات .

فأخذ الشيخ منه أشعاره ورمى بها في القدير ، وقال له : أنا من يملك على ما تبحث عنه ، وأخذ يفتح له الطريق .

هذا الشيخ هو شمس نيريز الذي قضى جلال الدين في صحبته عامين ذهب بعدهما الشيخ إلى حيث لا يدري أحد له مثوى ، وكان ذلك أوائل عام ٦٤٥ هـ ، ويقول جلال الدين في رثائه

من ذا الذي قال أن شمس الروح قد ماتت ؟

من ذا الذي يتجرأ على القول بأن سحب الأمل قد تولت ؟

ونظم جلال الدين في رثاء شيخه ديواناً كاملاً مسماه (ديوان

شمس تبريز)

وعاش جلال الدين في قونية بين مريديه ثمانية وأربعين عاماً ينشد الناس شعره وينظم الحكمة ، ويتأمل الحياة والكون ، ونظم المثنوى وأتمه إلى أن توفاه الله عام (٦٧٢ هـ — ١٢٧٤ م) ، وذلك في الخامس من جمادى الثاني وترك من المؤلفات:

كتاب " فيه ما فيه " وهو مجموعة من مواعظه .

" الرسائل " وهو مجموعة من رسائله إلى أقاربه وأصدقائه .

" المجالس السبعة " وهو مواعظ وخطب .

وترك من الشعر :

ديوان " شمس تبريز " ، وهو ٣٥٠٠ قصيدة وأبياته ٤٣ ألف بيت من الشعر

"الرباعيات"، وهي منظومات عددها ١٦٥٩ رباعية تشتمل على ٣٠٣١٨ بيت شعر .

"المنثوى"، وشعر المنثوى شكل من أشكال الشعر الفارسي، ومعناه السنظم المزدوج الذي يتحد فيه شعرا البيت الواحد في القافية، ويكون لكل بيت قافيته .

- ٤ -

ويتميز شعر المنثوى بكثرة الحكم والأمثال، وباستخدام القصة، وبغذوبة الموسيقى وحلاوتها، وبجدة الموضوعات، وبروعة الحوار، وجمال الصور الشعرية وبعمق المعاني ودقتها وبتخاذ الموضوعات البسيطة موضوعاً للقصيدة .

وإذا كان الفردوسي إماماً في الشعر الملحمي، والخيام رائداً في الرباعيات الفلسفية، والانوري أستاذاً في القصائد الصوفية الطويلة، والسعدي إماماً في الغزل والحب الإلهي، وحافظ أستاذاً في الغزل الصوفي، فإن الرومي كان إماماً لكل الشعراء الروحيين في الأدب الإسلامي .

- ٥ -

وبحق لقد قدم الدكتور الخالد الرائد / محمد عبد السلام كفاي في مجلداته الأربعة الصادرة عن دار الشروق، أجمل أثر أدبي عالمي لمحبي الشعر والصوفية والغناء .

وأصبح في يدنا المنثوى مترجماً عن الفارسية ومشروحاً ومدروساً بأجمل أسلوب، وأدق عبارة، وتجلت في هذه الترجمة الأنيقة فلسفة المترجم والشاعر الروحية النابضة بالحياة والأمل والنور والجمال .

إنه عمل كبير لا ينساه التاريخ الأدبي ، ولا تنساه محافل الأدب ، ولا يمكن أن تنساه الأجيال المؤمنة بالروح وبالحب وبالإشراق الصوفي الرفيع .
وماذا نستطيع أن نقول في الذكرى الحادية الثلاثين للعالم الكبير الجامعي الأستاذ/ كفاي مترجم المتنوى ؟
بل وماذا نستطيع أن نقول في ذكرى مرور أكثر من سبعمئة وخمسين عاماً على وفاة صاحب المتنوى ، جلال الدين الرومي .
ومن عالمنا المادي نبعث إلى روحى الشاعر والمترجم في سماء الخلود أجل آيات التقدير والحب العظيم .